أبو عثمان المازني

أوّل من حرّر مسائل علم الصرف وجمعها في كتاب واحد جامع هو خير كتب هذا العلم

هو أبو عثمان بكر بن محمد بن عَدِيّ بن حبيب أحد بني مازن بن شيبان وقيل مَوْلى بني صَدُوس ونزل في بني مازن بن شيبان فنسب إليهم ، وكان أبوه نحويًّا قارئًا . وقد نشأ المازني ودرس وارتقى في العلم وتمّ نضجه في البصرة في القرن الأوّل العباسي (١٣٢ ـ ٢٣٢) وأدرك نحو خمس عشرة سنة من أوّل القرن العباسيّ الثاني وهي مدة خلافة المتوكل (١٣٢ — ٢٤٧) إذ ورد في وفاته أقوال هي سنوات ٢٤٩ و٢٤٨ و٢٤٧ و٢٤٦ فأوسطها جميعاً نحو سنة ٢٤٧ وهي السنة التي قتل فيها المتوكل . أما ما قيل من أنّ المازني مات سنة ٢٣٠ هـ فغير صحيح لأن الروايات متضافرة على أنه جالس المتوكل، والمتوكل تولى الخلافة بعد سنة ٢٣٠ وهي سنة ٢٣٢ .

وامتاز القرن الأول العباسيّ بتحرير المسائل العلمية وبتكوّن العلوم واستقلالها وارتقائها ومنها علوم اللغة العربيّة فقد ازدحم هذا القرن بتدفّق الناس من عجم وعرب ومن بدو وحضر على موارد اللغة العربية ألفاظها وأصالبها وما يتصل بها وبأهلها من نوادر وأخبار وأنساب وعلوم يتصيدون شواردها ويحررون مسائلها ويتدارسونها وينشرونها .

وكانت البصرة والكوفة حينئذٍ وهما على حدود البادية ملتقى الحضارة والبداوة ومحط العلماء والطلاب ومهبط فصحاء العرب من أهل البادية والآخذين عنهم وعن أئمة اللغة من أهل الحضر وما كان عشاق اللغة والأدب يقتعون حينئذٍ عن يلقون من فصحاء البادية في البصرة والكوفة فكانوا يبدون للاستزادة من العلم والرواية .

وقد بلغ تنافس الرواة والعلماء في الرواية والدراية أقصى حدوده لأمور كثيرة منها

(١) — أن العلم باللغة والأدب أصبح مصدراً خصباً للرزق الطالب والمطلوب إذ كان خلفاء اللغة من أهل البادية يؤجرون على الرواية والدراية . وكان رواة الحضر وعلماؤه في جاهٍ عريض وعيش رغيد بما يروون ويبينون

(٢) — وما كان من شيوع المجادل والمناظرة والمحاورة بين الرواة والعلماء في المجالس العامة والخاصة والحرص على الفوز والانتصار فيها

(٣) — الخلاف في الرواية والدراية وتعصب كل فريق لروايته ودرايته ومذهبه النحوي وحرصه على تأييده وقد بلغ الخلاف بين البصريين والكوفيين أقصى حدوده .

(٤) — الرغبة الصادقة في دراسة اللغة دراسة جيدة وإدراك حقائقها وأسرارها إدراكاً صحيحاً لأنها الوسيلة لفهم النصوص الدينية القرآن والحديث والعروة الوثقى بين العرب والعجم

(٥) — حب أكثر الخلفاء التسعة الأولين من بني العباس الذين ولوا الخلافة في القرن الأول العباسي (١٣٢ — ٢٣٢) العلم والعلماء وفتحهم أبوابهم ومجالسهم وصدورهم وخزائنهم لدراسة العلم وتحقيقه وترقيته وعنايتهم بذلك أكبر عناية عرفت في التاريخ .

وقد تجمعت سيول اللغة العربية وآدابها وعلومها المعروفة الى ذلك العهد أول ما تجمعت في بحر خضم واسع الارجاء بعيد الغور هو أبو عمرو بن العلاء التميمي المازني البصري المتوفى سنة ١٥٤ هـ . وكان من أشراف العرب ووجوههم وأحد القراء السبعة المشهورين فكان أعلم أهل زمانه وكانت دفاتره ملء بيته الى السقف وأخذ عنه كثيرون من العلماء في مقدمتهم .

١ — أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى البصري التيمي مولى بني تيم من قريش المتوفى سنة ٢٠٩ هـ .

٢ — أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب القيسيّ الباهليّ البصري المعروف بالاصمعيّ المتوفى سنة ٢١٤ هـ .

٣ — أبو زيد سعيد بن ثابت الانصاري البصري المتوفى سنة ٢١٥ هـ .

وقد آلت زعامة اللغة وآدابها وعلومها ورياستها في البصرة الى هؤلاء الأقطاب الثلاثة .

وعن هؤلاء الثلاثة أخذ صاحب الترجمة أبو عثمان المازني البصري علوم العربية وآدابها وأخذ عن غيرهم كأبي الحسن الاخفش وأبي عمر الجَرْميّ وأخذ عنه كثيرون في مقدمتهم أبو العباس المبرّد والفضل بن محمد اليزيدي ومنهم عبد الله بن سعد الورّاق والحارث بن أبي أسامة وموسى بن سهل الجرفي وأخنا والدينوري وغيرهم . وفي أخذه عن الأخفش خلاف

ومن العلوم التي تكوّنت في هذا القرن علم الكلام فقد أقبل هذا القرن والمسلمون فرق سياسية ودينيّة كثيرة متنابذة عاتوا الى عليهم من أحداث جسام مقتل عثمان وحرب علي ومعاوية ومقتل علي واضطهاد الأمويين العلويين وسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وازداد هذا الافتراق حدّة وعنفاً وتشعّباً بما كان من اضطهاد العباسيين الأمويين والعلويين وبما كان من اسلام كثير من علماء المجوس والنصارى واليهود وغيرهم من أرباب الأديان المختلفة ومحاولتهم الجمع بين عقائدهم والعقائد الاسلامية وبما كان من دراسة المسلمين العلوم

والفلسفة اليونانية ومحاولتهم التوفيق بينها وبين العقائد الاسلامية وما كان من عناية أعيان الدولة بهذا العلم وبآراء الفرق المختلفة وعقدهم مجالس المناظرة لها وانتصارهم للمذاهب منها .

وأظهر الفرق الاسلامية حينئذ فرقتا الشيعة والمعتزلة وبينهما اتفاق وافتراق ومن أقطاب المعتزلة النظام المتوفى سنة ٢٢١ هـ وتلميذه الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ وكلاهما أعلى أئمة علم الكلام والأدب كعباً ومن أقطاب الشيعة علي بن اسماعيل بن شعيب بن ميثم بن يحيى التمار وهو أول من تكلم في مذهب الشيعة الامامية وعلى رأسهم علي الرضا بن موسى الكاظم أحد أئمة الشيعة الامامية الاثني عشر ومن أعلى المهديين كعباً في العلم والصلاح .

فليس بغريب وهذا شأن الفرق الاسلامية والمذاهب المختلفة أن يكون أبو عثمان المازني كغيره من العلماء والخلفاء وأعيان الدولة معتنقاً مذهباً من هؤلاء المذاهب فقد كان من الشيعة الامامية ومن المعتزلة أخذ التشيع عن علي الرضا وعن علي بن ميثم .

يدل على تشيعه قوله : بينا أنا قاعد في المسجد اذا صاحب بريد قد دخل وهو يسأل عني ويقول أيكم المازني فأشار الناس اليّ فقال : أجبْ : قلت : ومن أجيبُ ؟ : قال : الخليفة : فذعرت منه وكنت رجلاً فاطميًّا فظننت أن اسمي رفع فيهم :

ذلك أن الائمة الاحد عشر الذين يعتقد الشيعة أمامتهم مع علي أعاظم من ذرية فاطمة الزهراء . وأما نسبته الى الارجاء فلعلها من الافتراء فالشيعة الامامية تبرأ من المرجئة . كما قال بعض مؤلفي الشيعة .

ويدلّ على أنه من المعتزلة القدرية أنه سئل : لم قلّت روايتك عن الأصمعي ؟ : قال : رُميتُ عنده بالقَدَر والميل الى مذاهب الاعتزال فجئته يوماً وهو في مجلسه فقال لي : ما تقول في قول الله عزّ وجلّ : إنا كلَّ شيء خلقناه بقدَر : قلت : سيبويه يذهب الى أن الرفع فيه أقوى من النصب في العربية لاشتغال الفعل المضمر وأنه ليس ها هنا شيء بالفعل أولى : ولكن أبت عامّة القرّاء إلاّ النصب ونحن نقرؤها كذلك اتّباعاً لأنّ القراءة سنّة فقال لي : فما الفرق بين الرفع والنصب في المعنى ؟ فعلمت مراده فخشيت أن تُغرَى بي العامة فقلت : الرفع بالابتداء والنصب باضمار فعل وتعاميْتُ عليه :

يقول العلماء : إن الرفع بالابتداء أقوى من النصب على المفعولية لأن الرفع لا يُحوجُ الى تقدير محذوف والنصب يُحوجُ الى تقدير فعل محذوف يفسّره المذكور . وإنما عدل القراء السبعة بالاجماع عن الرفع الى النصب لسرّ لطيف وهو أنّه لو رُفع لفظ كلّ لوقعت الجملة التي هي : خلقناه : صفة لشيء ووقع قوله بقدَر خبراً عن كل شيء المقيدة بالجملة الصفة ويكون الكلام على تقدير : إنا كل شيء مخلوق لنا بقدر : وهذا

التقدير يفيد أنّ هناك مخلوقاً لغير الله ليس بقدر ولو نصب لنفذ كل أنصار الكلام ؛ إنّا خلقنا كل شيء بقدر : فيفيد عموم نسبة كل مخلوق الى الله .

فقراءة كل بالرفع ليس فيها تقدير محذوف غير أن فيها خلافاً في المعنى . أما قراءة النصب فمع ما فيها من تقدير فعل محذوف المعنى فيها تام واضح كفلق الصبح غير أن المعتزلة يؤثرون الرفع لأنهم يقسمون المخلوقات الى مخلوق لله ومخلوق للبشر . ويقولون بزعمهم هذا لله وهذا لنا . لذلك سأل الأصمعي المازنيّ عن معنى هذه الآية . ولذلك فرّ المازني من الجواب عن هذا السؤال .

ومما يذكر بمناسبة ذكر الاصمعي وانكاره القول بالقدر على المازني أن أبا زيد سعيد ابن ثابت الانصاري أحد شيوخ المازني كان يرى رأي القدر وأن المازني قال : رأيت الاصمعي وقد جاء الى حلقة أبي زيد سعيد بن ثابت الانصاري فقبّل رأسه وجلس بين يديه وقال : انت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة !

وكان أبو عثمان المازني جيد الفهم جيد الحفظ حاذقاً كل الحذق كثير الجد والبحث والاستقصاء وما زال مشتغلاً باللغة وبعلم الكلام درساً وتدريساً ومناظرة حتى برع براعة فائقة فيهما فصار إماماً في اللغة والنحو والأدب واسع العلم دقيق الفهم عالي الشأن فيها وانتهى الى رفيقه وشيخه أبي عمر الجرمي آلت الصدارة في البصرة فكانا محدّثي النحو فيها حينئذٍ بل كان المازني هو شيخ أهله فيها . وصار علماً من أعلام علماء الكلام .

وكان قوي الحجة ثقة نافذ البصيرة ، غلاّباً في المناظرة ما ناظر أحداً الاّ أخذه وغلبه وقد ناظر بعض شيوخه فأفحمهم .

قال فيه تلميذه الامام الجليل أبو العباس المبرد : لم يكن بعد سيبويه أعلم بالنحو من أبي عثمان المازني : وقال النجاشي فيه : كان سيد أهل العلم بالنحو والغريب واللغة في البصرة ومقدمهم المشهور : وقال ابن الأثير : أبو عثمان بكر بن محمد المازني النحوي الامام في العربية : وقال ابن خلكان : كان امام عصره في النحو والأدب : وقال غير واحد : انه عالم ثقة : وقد وصفه شيخه أبو عبيدة : بالمتدرّج النقار ولعله يريد المترقّي البحاثة .

وأنا وإن لم أجد لمولده تاريخاً فيما بين يديّ من الكتب أستطيع أن أقول إنه أدرك من خلفاء الدولة العباسية هارون الرشيد وأولاده الأمين والمأمون والمعتصم وولدي المعتصم الواثق والمتوكل لانّه في بعض الروايات قدم بغداد وهو عالم وكان قدومه على عهد الامين وقيل المعتصم وقيل الواثق ولم يُرو أنه جالس من الخلفاء إلاّ الواثق والمتوكل .

فيكون قد أدرك الدولة العباسية وهي في قمة عزّها حضارة وعلماً وقوة وأدركها وهي

تهم بالانحدار من هذه القمة الى مهاوي الانقسام السياسيّ والعصبي بما كان من ايثار المعتصم الجند من الترك على الجند من الفرس والعرب وما تلا ذلك من فساد واضطراب في بغداد حاضرة الدولة وما كان من سوء أثره في الأقاليم.

فقد انتهى عصر المعتصم والأندلس للأمويين والمغرب الأقصى للادارسة وافريقية للأغالبة واليمن للزيادية وخراسان لآل طاهر والفرس والعرب حربٌ للدولة يكيدون لها المكايد ويتربصون بها الدوائر.

ويكون قد حاضر طائفة جليلة من أقطاب العلوم والآداب والفنون المعروفة الى عهده في الأمصار الناهضة كالبصرة والكوفة وبغداد منهم شيوخه أبو عبيدة والأصمعيّ وأبو زيد وأبو الحسن الأخفش وأبو عمر الجرمي ومنهم السجستاني (المتوفى سنة ٢٥٥) والنضر بن شميل (٢٠٤) والهروي (٢٥٥) ومحمد بن سلام الجمحي (٢٣٢) وأبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٣) وهشام الكلبي (٢٠٦) وقطرب (٢٠٦) وثعلب (٢٠٠—٢٩٤) والنظام والجاحظ والصولي (٢٤٣) والكسائي (٢٠٧) والفراء (٢٠٧) وابن الاعرابي (٢٣١) وابن السكيت (٢٤٤) والشيباني (٢٠٦) والبخاري (٢٥٦) وابن حنبل (٢٤١) ومنهم أبو نواس (١٩٨) ومسلم ابن الوليد (٢٠٨) وأبو العتاهية (٢١١) وأبو تمام (٢٣١) ودعبل (٢٤٦) وعلي بن الجهم (٢٤٩) وحسين بن الضحاك (٢٥٠) وابن مناذر (١٩٨) والعتابي (٢٢٠) والمكوك (٢١٣).

وقد كان له بين هؤلاء العلماء الأجلاء والأدباء الأفذاذ في هذا العصر العلمي المزهر مقام رفيع، فمن أخباره معهم ما يأتي:

في طبقات الأدباء لابن الانباري: قال أبو العباس المبرد سمعت أبا حاتم يقول: قرأت كتاب سيبويه على الأخفش مرتين وكان حسن العلم بالعروض واخراج المعميّ وقول الشعر الجيّد ولكن لم يكن بالحاذق في النحو وكان إذا التقى هو والمازني تشاغل أو بادر خوفاً أن يسأله المازني عن النحو. وروى هذا الخبر عن المبرد أيضاً في السجستاني نفسه لا في الأخفش

وقال المازني: كنت عند أبي عبيدة فسأله سائل: كيف تقول: عُنيت بالأمر: قال: كما قلتَ عُنيتُ بالأمر: قال: فكيف آمُرُ منه: قال فغلط وقال: أعْنُ بالأمر: فأومأتُ الى الرجل: ليس كما قال: فرآني أبو عبيدة فأمهلني قليلاً ثم قال: ما تصنع عندي؟: قلت: ما يصنع غيري: قال لست كغيرك لا تجلس اليّ: قلت ولمَ؟: قال: لأني رأيتك مع انسان خوزي (نسبة الى مكان) سرق مني قطيفة: قال: فانصرفت وتحمّلت عليه بأخوانه فلما جئته قال لي: أدّب نفسك أولاً ثم تعلم الأدب: قال المبرد: الأمر من هذا

باللام لا يجوز غيره لانك تأمر غير من بحضرتك كأنه ليُتمَّ مثلُ هذا (تقول لِيَقُمْ زيدٌ بالامر) .

وقال المازني : كنت عند أبي الحسن سعيد بن مَسْعَدَة الاخفش أنا والفضل الرياشيّ فقال الاخفش : إنّ مُنْذُ : إذا رفع بها فهي اسم مبتدأ وما بعدها خبرها كقولك ما رأيته مُنْذُ يومان : فاذا خفض بها كقولك : ما رأيته مُنْذُ يومين : حرفُ معنىً ليس باسم فقال الرياشيّ : فلم لا يكون في الموضعين اسماً فقد نرى الاسماء تخفض وتنصب كقولك هذا ضاربٌ زيداً غداً وهذا ضاربُ زيدٍ أمسِ فلِمَ لا تكون بهذه المنزلة ؟ فلم يأت الاخفش بمقنع . قال أبو عثمان فقلت له لا يشبه مُنْذُ ما ذكرت لأنا لم نرَ الاسماء هكذا تلزم موضعاً واحداً إلاّ إذا ضارعت حروف المعاني نحو أينَ وكيفَ فكذلك مُنْذُ هي مضارعة لحروف المعاني فلزمت موضعاً واحداً : قيل فقال ابن أبي زرعة المازني أفرأيت حروف المعاني تعمل عملين مختلفين متضادين ؟ قال المازني : نعم كقولك قام القومُ حاشا زيدٍ وحاشا زيداً وعلى زيدٍ ثوبٌ وعلا زيدٌ الفرَسَ فتكون مرّةً حرفاً ومرةً فعلاً بلفظ واحد .

وقال المازني : حضرت أنا ويعقوب بن السكيت مجلس محمد بن عبدالملك الزيات وأفضنا في شجون الحديث إلى أن قلت : إنّ الاصمعي يقول بينا أنا جالس إذْ جاء عمرو : فقال ابن السكيت : هذا كلام الناس : قال : فأخذت في مناظرته عليه فقال محمد بن عبد الملك : دعني حتى أبيّن له ما اعتنيه عليه ثم التفت إليه وقال : ما معنى بينا : قال : حين : قال : أفيجوز أن يقال : حين جاء عمرو إذ جاء زيد : قال : فسكت .

أما سبب مجالسته الواثق فهو أن مغنّياً غنى الواثق هذا البيت :

أظلومُ إنّ مصابكم رجلاً   أهدى السلام تحيةً ظُلْمُ

فلحّنه قومٌ وصوبه آخرون فسأل الواثق عمن بقي من رؤساء النحويين فذكر له فأمر بازاحة علله وحمله اليه من البصرة الى سرَّ من رأى . فلما أدخل عليه أكرمه وسأله عن البيت فقال : صوابه : إن مصابكم رجلاً : قال : فأين خبر إنّ : قال : ظلم : والبيت كله متعلق به ، ولا معنى له حتى يتم بقوله : ظلم : ألا ترى أنه لو قال :

أظلومُ إن مصابكم رجلاً   أهدى السلام تحيةً : فكأنه لم يُفِدْ شيئاً حتى يقول : ظلمُ : ولو قال أظلومُ إن مصابكم رجلٌ ٭ أهدى السلام تحيةً : لما احتاج الى ظلم ولا كان له معنى إلاّ أن تجعل التحية بالسلام ظلماً وذلك محال ويجب حينئذ :

أظلومُ إن مصابكم رجلٌ   أهدى السلام تحية ظلما

ولا محمور فذاك ولا مهوز فكان له وجه يريده الشاعر؛ فقال: صدقت. ثم سأله عن أهله وماله ومستغناه ثم كتب أن يتحن معلمي أولاده فامتحنهم ولم يحمد منهم أحداً. ولما أدركوا ذلك خافوه فقال لهم: لا بأس على أحد منكم. ولما سأله الواثق: كيف رأيتهم؟ قال: يفضل بعضهم بعضاً في علوم ويفضل الباقون في غيرها وكل يحتاج اليه: فقال الواثق: إني خاطبت منهم رجلاً فكان في نهاية الجهل في خطابه ونظره: فقال: يا أمير المؤمنين: أكثر من تقدم منهم بهذه الصفة وقد أنشدت فيهم:

إنّ المعلمّ لا يزال مُضَعَّفاً ولو ابتنى فوق السماء سماء

من علّم الصبيان أصبوا عقله مما يلاقي بكرة وعشاء

فقال له لله درّك كيف لي بك ورغب في أن يقيم معه دائماً فاعتذر.

وقال المازني كنت بحضرة الواثق يوماً فقلت لابن قادم أو ابن سعدان وقد كابرني: كيف تقول نفقتك ديناراً أصلح من درهم؟ فقال: دينار بالرفع. فقلت: كيف تقول: ضربك زيداً خير لك فنصب زيداً؟ فطالبته بالفرق بينهما فانقطع

(والفرق بينهما أن نفقة اسم مصدر والضرب مصدر. والمصدر هو الذي يعمل عمل فعله لا اسم المصدر وذلك على مذهب البصريين لا الكوفيين فانهم يجيزون عمله كالمصدر واسم المصدر ثلاثة أنواع علم مثل فجار ويسار وهذا لا يعمل اتفاقاً ومبدوء بميم وهذا يعمل اتفاقاً ومنه (إن مصابكم رجلاً) كالمصدر من فاعل وغير هذين هو محل الخلاف) وكان ابن السكيت حاضراً هذا المجلس فقال الواثق المازني: سله عن مسألة فقال:

ما وزن نَكْتَل من الفعل؟ فقال: نفعل: فقال الواثق: غلطت. ثم قال: فسره: قلت: نَكْتَلْ تقديره نفتعل وأصله نَكْتَيِلُ فانقلبت الياء ألفاً لفتحة ما قبلها فصار لفظها نكتال فأسكنت اللام للجزم لأنه جواب الأمر فحذفت الألف لالتقاء الساكنين فيكون الوزن نفتل: فقال الواثق: هذا هو الجواب لا جوابك يا يعقوب: فلما خرجنا قال لي يعقوب: ما حملك على هذا وبيني وبينك المودّة الخالصة؟ فقلت: والله ما قصدت تخطئتك ولم أظن أنه يعزب عنك ذلك.

ولما أراد المازني العود الى البصرة أمر له الواثق بخمسمائة دينار وقيل بألف وكتب الى والي البصرة أن يجري عليه كل شهر مائة دينار فكان يجري عليه هذه المائة كل شهر حتى مات الواثق فقطعت عنه.

قال المازني. ولما ذكرت للمتوكل أشخصني اليه فلما دخلت عليه رأيت من العدد

والمدائح والأراك ما راعني والفتح بن خاقان بين يديه وخشيت إن سئلت عن مسألة ألا أجيب فيها فلما مثلت بين يديه وسلمت قلت : يا أمير المؤمنين أقول كما قال الاعرابي :

لا تقلواها وادلواها دلواً   إنّ مع اليوم أخاه[1] غدوا

فلم يفهم عني ما أردت واستبردت وأخرجت ثم دعاني بعد ذلك واستنشدني أحسن مرثية للعرب فأنشدته قصيدة ذؤيب :

أمن المنون وريبها تتوجّع   والدهر ليس بمعتب من يجزع

حتى أتيت على آخرها . ثم قصيدة نويرة اليربوعي :

لعمري وما عمري بتأمين هالك   ولا جزعٌ مما أصاب فأوجعا

حتى أتيت على آخرها ثم قصيدة كعب الغنوي :

تقول سليمى ما لجسمك شاحباً   كأنك يحميك الشراب طبيب

حتى أتيت على آخرها ثم قصيدة ابن مناذر

كل حيٍّ لاقي الحمام فمودي   ما لحيّ مؤمَّلٍ من خلود

حتى أتيت على آخرها . وكان كلما فرغت من قصيدة من هؤلاء القصائد قال : ليست بشيء ، ثم قال : من شاعركم اليوم بالبصرة ؟ قلت : عبد الصمد بن المعذّل . قال : فأنشدني له : فأنشدته أبياتاً له (وهي أبيات هزلية مقبحة التركيب) فاستحسنها واستطابها واستطار لها وأمر لي بجائزة فكنت من ساعتئذٍ حريصاً على أن أحفظ أمثالها وأنشده إياها إذا وصلت اليه فيصلني .

وحكي أنّ أبا عثمان المازني سئل في حضرة المتوكل عن قوله عزّ وجلّ : وما كانت أمه بغيًّا : فقيل له : كيف حذفت الهاء وفي فعيل وفعيل إذا كان بمعنى فاعل لحقته الهاء نحو قويّ وقويّة : فقال : إنّ بغيًّا ليست بفعيل وإنما هي فعول بمعنى فاعلة لأن الاصل فيها بغوي ومن أصول التصريف : إذا اجتمعت الواو والياء والسابق منهما ساكن قلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء كما يقال شويت شيًّا وكويت الدابة كيًّا والاصل فيهما شويًا وكويًا فعمل هذه القضية فيل بغي وواجب حذف التاء منها لأنها بمعنى باغية كما يحذف من صبور بمعنى صابرة .

وقيل ان هذا السؤال كان منه في أعلماء الكوفة في حضرة الواثق الذي طلب منه أن يسألهم .

(١) فلاها ساقها سوقاً شديداً — ودلاها ساقها سوقاً رفيقاً .

وقال المازنيّ سألني الاصمعي عن قول القائل

يا بئرنا بئرَ بني عَـديّ لايَنزحن قعرك بالدلِـيّ
حتى تعودي أقطع الوليّ (١)

فقلت حتى تعودي قليبا أُقطع الوليّ وكان حقّه أن يقول قطعاء الولي لقوله:حتى تعودي.
وممّا يدل على جودة فهمه ما رواه المبرد قال: سمعت المـازني يقول: معنى قولهم إذا لم تستح فاصنع ما شئت: إذا صنعت ما لا تستحي من مثله فاصنع منه ما شئت وليس على ما يذهب إليه العوام: قال المبرد: وهذا تأويل حسن.
أمّا أدلّة اتساعه في الرواية فمنها قصائد الرثاء التي قرأها للمتوكل ومنهـا ما قاله: لم يصح عندنا أن عليّ بن أبي طالب عليه السلام تكلم من الشعر بشيء غير هذين البيتين.

تلكم قريش تمنّاني لتقتلني ولا وجدّك ما بروا وما ظفروا
فإن هلكت فرهنٌ ذمتي لهم بذات ودقين لا يعفو لها أثر (٢)

وقال: قرأت على أبي وأنا غلامٌ: ترى الودق يخرج من خلاله: فقال أبو سوار الغنوي وكان فصيحًا: يخرج من خلله. فقال أبي: من خلله قراءة: فقال أبو سوار: أما سمعت قول الشاعر:

يثير بغمرة يخرجن منها خروجَ الودق من خلل السحاب

قال أبو عثمان: خلل وخلال واحدها مصدران. وقال: حدثني أبو زيد قال: سمعت رؤبة يقرأ. فأما الزبدُ فيذهبُ جُفالاً. قال: قلت جفاء. قال: لا أنها الريح تجفله أي تقلعه:

وقال حدثني رجل من بني ذهل بن ثعلبة قال شهدت شبيب بن شبّة وهو يخطب الى رجل من الاعراب بعض حُرمه وطوّل وكان للاعرابي حاجة يخاف أن تفوته فاعترض الاعرابي على شبيب وقال له: ما هذا إن الكلام ليس لمتكلم المكثر ولكن لمقل المصيب وأنا أقول: الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين أما بعد فقد أدليت بقرابة وذكرت حقًّا وعظمت مرغبًا فقولك مسموع وحبلك موصول وبذلك مقبول وقد زوجناك صاحبتك على اسم الله وفي رواية وعظمت مَرْغبًا.

(١) القليب البئر. الولي المطر بعد الوسمي سمي وليا لانه يلي الوسمي والوسمي مطر أول الربيع نزح البئر أخرج ماءها. (٢) الودق الثريان وداهية ذات ودقين عظيمة.

وسئل المازني عن أهل العلم فقال : أصحاب القرآن فيهم تخليط وضعف وأهل الحديث فيهم حشو ورقاعة والشعراء فيهم هوج والنحاة فيهم ثقل وفي رواية الأخبار الظرف كله والعلم هو الفقه .

ولأبي عثمان المازني شعر قليل منه :

هيئان يعجز ذو الرياضة عنهما رأي النساء وإمرة الصبيان
أما النساء فإنهن عواهر وأخو الصبا يجري بغير عنان

ومنه ما رواه المبرد قال : عزّى المازني بعض الهاشميين ونحن معه فقال :

إني أعزيك لا أني على ثقة من الحياة ولكن سنة الدين
ليس المعزّى بباقٍ بعد ميته ولا المعزّي وإن عاشا الى حين

أما ورعه وأخلاقه فكانا في الذروة العليا فما يدل على ورعه ما رواه المبرد قال : إن يهوديًّا بذل للمازني مائة دينار ليقرئه كتاب سيبويه فأبى فقيل له : لِمَ امتنعت مع حاجتك وأهلك ؟ ! قال : إن في كتاب سيبويه ثلثمائة وكذا وكذا آيةً من القرآن ولست أرى أن أمكّن منها ذميًّا غيرةً على كتاب الله وحميّةً له : قال المبرد : فلم يمض على ذلك مُديدةٌ حتى طلبه الواثق وكان معه من أمره ما كان .

ومما يدل على سموّ نفسه وترفعه عن الصغائر أن عبد الصمد بن المعذّل كان قد وجد عليه من شيء أنكره المازني وكلام تكلم به فيه فقال أبياتًا يهجوه بها وأفحش .

أولها : بنت ثمانين بفيها لثغة هوهاة ورهاء كطين الردغة
وآخرها : فاطو حديثي دونه أن يبلغه هممت أعلو رأسه فأدمغه

فبلغ ذلك أبا عثمان فلم يزد على أن قال : قولوا لهذا الجاهل بِمَ تصبت فأدمغه ؟ لو لزمت مجالسة أهل العلم كان أعود عليك .

***

ويتضح من الألفاظ التي دارت حولها المساءلات والمناظرات السابقة أن علم الصرف كان حينئذٍ في طور النشوء والارتقاء والاستقلال فلم يكن إلى ذلك العهد قد وضع فيه كتاب على حدة وكان أبو عثمان المازني معنيًّا به كل العناية يفكر في مسائله ويدارس العلماء فيها ويناظرهم لتحريرها وضبطها وهم لعنايته هذه بها يسألونه وما زال كذلك حتى أفضى به ذلك

إلى أفراد هذا العلم يصنف هو أول ما ألف فيه سماه المنصف ويعرف بتصريف المازني وقد كانت بحوث عن الصرف قبل المنصف تذكر في خلال بحوث علم النحو .

وقد جاء هذا الكتاب وهو الأول من نوعه خير الكتب القديمة والحديثة في علم الصرف بإجماع العلماء وأدل دليل على ذلك أن ابن جني وهو أعلم العلماء بالصرف وفي مقدوره أن يؤلف فيه كتاباً مستقلاً يكون خير كتاب فيه آثر أن يشرح تصريف المازني لجلالة قدر الكتاب وقدر مؤلفه ثم صار هذا الشرح هو الآخر درة في تاج المؤلفات العربية بإجماع العلماء .

وقد سألت الامام العلامة اللغوي الجليل محمد بن محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي نزيل القاهرة رحمه الله أيام كانت دار الكتب المصرية في درب الجماميز قبل أن تنقل الى مبناها الجديد بباب الخلق وكنا منصرفين منها والتقينا عند جامع الحين بالقرب من ميدان باب الخلق : ما خير كتاب في علم الصرف ؟ : فقال رضي الله عنه : الشافية لابن الحاجب وخير منها شرح ابن جني على تصريف المازني ولا يوجد إلا عندي : فلما اختاره الله لجواره ونقلت كتبه الى دار الكتب سارعت الى الاطلاع على هذا الكتاب فاذا به مكتوب بخط مغربي سقيم يتعسر الانتفاع به ولما توفي الى رحمة الله تعالى أحمد تيمور باشا ونقلت كتبه هو الآخر الى دار الكتب وجدت فيها نسخة من هذا الكتاب منقولة عن نسخة الشنقيطي ولكنها بخط جميل فاذا به في الذروة العليا .

ولأبي عثمان المازني من الكتب غير كتاب المنصف المذكور كتاب في القرآن كبير وكتاب في علل النحو صغير وكتاب في تفسير كتاب سيبويه وكتاب ما تلحن فيه العامة وكتاب الألف واللام وكتاب العروض وكتاب القوافي وكتاب الديباج في حواشي سيبويه وهو كالفهرس لمطالبه وكل مؤلفاته جيد .

وكان يقول : من أراد أن يصنف كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستح . ولعل هذا الاعتقاد هو الذي صرفه عن التأليف في النحو الى التأليف في الصرف ولو أنه ألف في النحو لجاء بأعجب العجب فقد قرأ كتاب سيبويه درساً وتدريساً مرات كثيرة .

هذا ما وسعه الوقت والجهد من ترجمة هذا العلامة الأجل الحبيب . وأرجو أن أوفق لكتابة ترجمة شارح كتابه المنصف وهو أبو الفتح عثمان بن جني .

عبد الله امين